الدكتور

محمد الحبش

المؤمن والربيع

دار ندوة العلماء

المؤمن والربيع

محاضرة القاها الدكتور محمد حبش
في جمعية المخترعين السوريين

دمشق
2006

م ينظر الإسلام إلى الدنيا على أنها ملعونة، ملعون ما فيها، بل نظر إليها على أنها نعمة الله للإنسان، وأنها امتحانه وقدره، ونعمت الدنيا مطية المؤمن، ونعم المال الصالح للرجل الصالح، ولأجل ذلك فقد كان إعمارها والإحسان إليها قصداً مباشرا لرسالة النبي الكريم.
وفي الحديث ما من مسلم يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كتب له به أجر.
وقال: سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته: من علم علماً أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو حفر بئراً أو كرى نهراً أو غرس نخلاً أو ترك ولداً صالحاً يدعو له.

نحن نهدي الأرض زهراً وثماراً وسوانا يبعث النار ضراماً
كل نمرود إذا أوقد نـــاراً عادت النيران برداً وسلاماً

كان رسول الله نصيراً للحياة والربيع، ولم يكن يرضى لأمته الرهبنة والعزلة، وقال لا رهبانية في الإسلام، وكان يحب العرق الأخضر، ولم يكن لينسى أن رسالته في بناء الآخرة لا يجوز أن تشغله عن بناء الحياة، وبتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وفي موقف ذي دلالة فحين وصل إلى مكة المكرمة يوم الفتح، وقد كان ذلك اليوم مشهوداً ترقبه الخواطر وتنتظره الأشواق والأذواق، توجه من فوره إلى البيت الحرام فقد كان في غاية الشوق للبيت الحرام الذي يختصر أشواقه وأذواقه وآماله، والذي هو ملاعب الصبا وذكرى الشباب ووعد الآخرة، وكان المشركون قد صدوه عن البيت عشر سنين ثم أخرجوه منه ثمانية أخرى فاكتملت أشواقه في نحو عشرين عاماً من التوق والشوق، يستقبله في قبلته كل يوم، ولكن لا يسمح له أن يطوف فيه، وكان يصد عن الدخول إليه في حين أن الهذلي والباهلي والأحابيش والزط يزورون ويكبرون ويلبون فيه، وهو الهاشمي المطلبي فخر بني عبد مناف، من ذؤابة قريش سادة البيت وحماة الحرم.
وقف هناك قبالة باب السلام ليتأمل في مشهد البيت الحرام وقد جعله الله مثابة للناس وأمناً، وحين دخل من باب السلام كان فؤاده يلتهب شوقاً لنفحات الحرم، وذرفت من عينيه أحر المدامع وهو يتصل بالشوق للحرم الشريف، وحين وصل إلى أقدس بقعة في البيت بل في الدنيا كلها، بين الركن اليماني والحجر الأسود، كانت ترقبه عيون محبيه وشانئيه، وكانت كلماته تستعد لتأخذ مكانها في سجل التاريخ، دعا ربه بدعاء لا تزال تحفظه الأيام: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.
في الواقع كانت اللحظة دقيقة ورهيبة، ولم تكن لحظة اتخاذ مواقف، فالشوق يعصف به من كل وجه، والعيون تتعلق به لترسمه قديساً لا أرب له في هذا العالم،

مكانه في رؤوس الجبال مع الغمام الشاهق والشاهين الغارب، تحدق بمجده العيون ولا تبلغه الهمم، ولكنه اختار أن يكون بشراً وأن يتحدث عن الدنيا بنفس الاحترام الذي يكنه للآخرة، وهنا علم العالم أن لا رهبانية في الإسلام وأن المسلم أخو الربيع، وأن إعمار الحياة على رأس مقاصد الإسلام، وأن الرسول الكريم ليس في وارد بناء الآخرة وهدم الدنيا، وأنه مخلوق في الأرض ليحسن إليها، وأن العالم سيصبح أكثر جمالاً وربيعاً مع مرور موكب هذا النبي فيه، وأنه سيزرع الورد في كل مكان يمر فيه، وسيخصب الأرض في كل محطة ينزلها، ولن تقوم ساعته حتى تعود بلاد العرب مروجاً وأنهارا، وسيمنح العافية للناس والغيث للأرض والحياة للربيع.

حين اختار دعاءه الخالد بين الركن والمقام، وركزه في كل صلاة يصليها مسلم من أول الدهر إلى منتهاه، كان بالفعل يريد للدنيا أن تكون أكثر جمالاً، وللناس أكثر رفاهاً، وهو معنى لن يفارقك في كل صلاة وأنت تقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

إنه لا يشبه في شيء مدارس الخمول التي قامت في العالم الإسلامي لرهبان بائسين على رؤوسهم عمائم، تمجد الخمول (اقرأ باب فضل الخمول وفضيلة التوكل في مختصر منهاج القاصدين) وتنتقد العمل، تحرم التداوي وتهزأ بالطبيب، وتحرم الفرح وتمجد البكاء، تسعى إلى التبتل وتحرم السعادة، تدعو إلى صيام لا فطر فيه وقيام لا نوم فيه!! وتكره النعيم في فراش الحب، والجود على كرم المائدة!! (بكى نوح ستمائة عام!! وبكى داود حتى نبت البقل من بكائه!! أما فلان وفلان فقد مكث أربعين سنة لم يضحك قط) إنها أساطير لو عرضت على ميزان محمد لصعد منبره غاضباً: ما بال أقوام يحرمون ما أحل الله ، يقول أحدهم أصوم ولا أفطر ويقول الآخر أقوم ولا أنام ويقول الثالث لا آكل اللحم ويقول الرابع لا أتزوج النساء!! إن أخشاكم وأتقاكم لله أنا!! ولكنني أصوم وأفطر وأقوم وأنام، وآكل اللحم وأتزوج النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني!!

إقبال طرح هذه المسألة بغاية الوضوح، ووثب غاضباً من سلوك مدراس الخمول التي نظرت إلى الدنيا على أنها فتنة ملعونة، وخربت الأرض وراحت تنتظر نعيم السماء:

فردوسك اللهم لم يره هنا أحد وأنت هو السميع المبصر
الإنكليز بلادهم فردوسهم والمسلمون إلى سمائك تنظـر

أوروبا قطعة خضراء من الجنة، وقد ملكت شعوبها مفاتيح الحضارة فصنعت على الأرض فردوسها الموعود في السماء، إنه ليس كفراً بأمره ونهيه، ولكنه قانون الله القديم: ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم، وهو قانون القرآن الكريم: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض.

لماذا يمنحك الله السماء وأنت خربت الأرض؟ إن القرآن يقول: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، والرأي المختار هنا الصالحون لإعمارها والإحسان إليها وإسعاد الخلق فيها:

ما زال فكري في سمائك حائراً فاسجنه في فلك من الأفلاك
تأبى علي ملائكية فطرتي أن أستمر بهـذه الأشراك

قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

الإيمان والربيع محاولة للاقتراب أكثر من رسالة الإسلام في بناء الحياة وتحقيق الرفاهية للناس.

الإيمان ربيع أخضر، أبناؤه يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين، ويطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، إنه محاولة لنقل نعيم الجنة إلى هذا العالم الأرضي، وهو كفاح مارسه الرسول بكفاءة واقتدار فحول صحراءه إلى بستان وقحطه إلى ربيع.
وهي قراءة واضحة يقدمها إقبال في صورة سؤال ثائر جريح:
أيها المسلم يا نور السماء كيف لا تشرق في أرض البشر
أنت سلطان الليالي لا كما قالت الحمقى أسير للقدر

إنها جملة مقالات كتبتها في مناسبات شتى، قمت بتأليف بعضها إلى بعض، وربما عدلت فيها يسيراً لتستقيم مع عنوان الكتاب وغايته، آمل أن يجد فيها القارئ الكريم المتعة والفائدة، وأن تصبح الحياة أكثر ربيعاً، وفق مقياس الحكمة الخالدة: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.
هل تملك هذه الأوراق أن تشرح رسالة المؤمن في نشر العافية في الأرض والربيع في الحياة؟ آمل ذلك وبالله التوفيق.

ابتكر معروفاً
الصدقة ربيع الحياة

لا يمكن حصر عمل الخير في أن تمتد يد الغني إلى الفقير بالصدقة والإحسان، إنه أمر محمود بكل تأكيد ولكن الإحسان أيضاً مسألة إبداع، فقد أطلق الفقهاء القرائح للناس ليبتكروا وجوه الخيرات ويمكن هنا أن نعد من هذه الخيرات نظام الوقف الإسلامي، فقد أحدثوا أوقافاً للمدارس والمشافي والجامعات والمساجد والتكايا (المطاعم المجانية) والنزل (الفنادق المجانية) والخانات (الموتيلات المجانية) ثم التفتوا إلى جوانب جد دقيقة فابتكروا فيها بالخيرات، فأحدثوا وقفاً خاصاً لطلبة العلم يشتمل على رعاية كل ما يحتاجه طالب العلم، وأوقفوا أموالاً خاصة لإنفاقها على ثياب الطلبة وأقلامهم ودفاترهم حتى خصصوا وقفاً خاصاً للمكسرات من الموالح ذلك لأن طالب العلم ينبغي أن لا يصد عنه لون من الرفاهية حتى يتمكن من تحقيق أفضل النتائج، ومن الأوقاف أيضاً وقف الأواني وكان مخصصاً لمن انكسرت آنيته من الخدم أو الغلمان فكان يأتي إلى ناظر هذا الوقف فيستبدل ما انكسر بدون عوض، وأحدثوا وقفاً للنساء الغواضب اللاتي لم يكن لهن مأوى فإذا وقعت الخصومة في الدار فإن هذه المرأة الغاضبة ستتشرد ولكن دور النساء الغواضب كانت توفر لها الملجأ والمأوى زمناً حتى تلتئم جراحها وتستعيد عافيتها، وكان من الأوقاف التي أعدها أيضاً النظام التكافلي الاجتماعي في الإسلام وقف المصطبة (المهاجرين والميدان على سبيل المثال) وهو وقف خاص بمن توفي وعليه دين فكان يحمل إلى تلك المصطبة حيث يتبادر الأسخياء والأجواد لرد ديونه قبل دفنه، حتى تصفو القلوب ويشارك في أجره وعزائه دائنوه ومدينوه.

بل إنهم انطلقوا إلى ما هو أكثر من ذلك فقد أحدثوا أوقافاً خاصة لما يهرم من دواب المسلمين وكانت أرض مدينة المعرض القديم بدمشق وقفاً خاصاً بالدواب الهرمة التي تقاعدت عن العمل وتقاعس أصحابها عن العناية بها فكانت تجد هناك كل ما تحتاجه من عناية حتى يوافيها الأجل وفاء مع هذه النفس التي سخرها لنا الله في حوائجنا ولكم فيها منافع وعليها وعلى الفلك تحملون.

يمكن التماس فن إبداع المعروف والخيرات من النبي الكريم ρ فقد قال ذات يوم لأصحابه: أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز ما من مؤمن يعمل بواحدة منها رجاء ثوابها وابتغاء موعودها إلا أدخله الله الجنة، وراح الأصحاب الكرام يجتهدون في عد هذه الخصال الأربعين التي تقل تكلفتها وعناؤها عن منيحة العنز، ومنيحة العنز تكون في الرجل يحب أن يتصدق ولكنه لا يملك مالاً ولا ذهباً ولا فضة، ولكن لديه عنزة أوشاة فيعيرها لمن يحتلبها يوماً أو يومين يطعمها ويشرب لبنها، فهذه المنيحة من العنز توجب دخول الجنة لمن فعلها ابتغاء ثوابها وأجرها، وبدأ الصحابة الكرام يعدون أربعين باباً من الخير أعلاهن منيحة العنز فلم يحصوا ذلك، وعدوا من هذه الأشياء خمسة عشر مسألة، ومما عده الصحابة في الخيرات: إماطة الأذى عن الطريق وعيادة المريض وإعانة الأخرق وإعانة المغلوب ورد السلام واتباع الجنازة وإجابة الدعوة وتشميت العاطس والبدء بالسلام وتبسمك في وجه أخيك وإرشاد الضال والبصر لرديء البصر وإفراغك من دلوك في دلو أخيك وإسماع الأصم وهداية الأعمى ودلالة المستدل على حاجته وإعانة الرجل في دابته والتعبير عن الأرتّ وهو الذي لا يفصح الكلام ولا يبينه وإيناس الوحشان.

والآن أغمض عينيك وافتح قلبك، وابتكر معروفاً

أبني إن البر شيء هين وجه طليق وكلام لين

الشجرة والمقبرة

القبر ربيع المؤمن

هل هناك ما يمنع شرعاً من غرس الأشجار في المقابر؟
في الواقع يطرح هذا التساؤل البريء مسألة إحياء السنة النبوية التي جاءت واضحة في غرس الأشجار على المقابر، فقد وردت الإشارة إلى ذلك في مواطن متعددة في السنة النبوية حيث لم يكن النبي الكريم يفوت موقفاً واحداً إلا وهو يتحدث عن بركة العرق الأخضر في المقبرة ، وهو العرف الذي يحييه الناس عادة في العيدين حيث تمتلأ المقابر برائحة الآس، ولكنه يتخافت سائر العام إذ لا يتجدد الآس في المقابر إلا مع سماع تكبيرات العيد، والآس عرق أخضر أمسكه الرسول الكريم بيده ووضعه على قبر رجل متوفى، وأخبر أنه لا تزال رحمة الله فيه ما لم ييبس.

وتبدو هذه السنة النبوية الكريمة ملهمة للأمة في غرس الأشجار في المقابر إلى الحد الذي ينبغي أن يجعل المقابر روضة فواحة الشجر الأخضر، ولكن لماذا لا ينطبق ذلك على الواقع؟
إننا نعاني في الواقع من الفهم الظاهري للنص، ذلك الفهم الذي يحنط العقل عند مرحلة من الوعي لا تتجاوز حدود الشكل الذي جاءت عليه السنة المطهرة، ثم لا يجد أي حاجة للتجديد أو التطوير.
إن السواك على سبيل المثال سنة نبوية كريمة وهو يهدف إلى تحقيق صيانة دائمة للأسنان واللثة، ولكن من البدهي أن هذه السنة الكريمة لا يعقل أن تتوقف عند حدود ما كان سائداً في عصر النبي الكريم من وسائل النظافة المتوفرة من عود الأراك، وبالتأكيد لو امتد به الزمن لأدخل تحسينات كثيرة على السواك تحقق درجة أدق من الغاية المطلوبة مع تجنب البكتيريا التي يمكن أن تنشأ من السواك غير المحمي، خاصة إذا رأينا بعض التطبيقات الغريبة لهذه السنة حيث يبيت السواك أحياناً في جيب مستعمله مع المفاتيح والمسامير وما تيسر من أشياء ثم يجد طريقه بعدئذ سالكاً إلى اللثة والأسنان وذلك في رأيي عمل ينافي مقاصد الشريعة، ولا يحتاج المرء لكثير نظر حتى يدرك أن معجون الأسنان المحمي بالفلورايد هو في الواقع السواك

الذي أمر به النبي الكريم وأخبر أنه مطهرة للفم مرضاة للرب، ولو أن النبي الكريم أدرك بعض تطبيقات السواك اليوم لتعجب من جمودنا على اختياره من دون نظرنا في مقاصد ذلك الاختيار وأهدافه.

والأمر نفسه ينبغي أن ننبه إليه في إطار الوعي بمقاصد السنة في تجميل المقابر، إن المقبرة في الهندسة الإسلامية جزء رئيس من التكوين الهندسي للمدينة الإسلامية وقد اعتاد المسلمون أن يؤسسوها في قلب المدن تذكيراً للناس بالموت والدار الآخرة، ووفاء مع سلفهم الصالح الذي سبق إلى لقاء الله، وهو معنى قد لا تتقبله بعض النظم الهندسية المستوردة التي ترى في الموت محض ظاهرة بؤس ينبغي أن نبعدها عن أعيننا ما استطعنا، فيما ينظر المؤمن إلى الموت على أنه جسر إلى نعيم الآخرة ورغدها ومن الضروري أن يتواصل الأحياء مع ذكريات السابقين إلى الأجل بالصيغة المحببة التي وردت بها السنة المطهرة: السلام عليكم يا أهل القبور، أنتم السابقون ونحن اللاحقون، وهي تحية تكشف لك خلود الإنسان في عطائه وروحه بحيث لا ينتهي عند طارق الموت!.
ولكن هذه المقاصد لا تتعارض شرعاً مع تجميل المقابر، ومن السنة نشر الرقعة الخضراء فيها، حيث أنها كانت إلى جانب وظيفتها الدينية مراكز للتعليم أيضاً فرب متن قرئ عند ضريح فلان أو تمت إجازته بأعتاب فلان، ومن الواضح أن قبور السلف الصالح في أي من مقابر الشام على سبيل المثال هي أجمل ما فيها عادة وأكثرها شجراً وأغزرها ثمراً، ومن المنطقي أن لا تكون على الوجه الذي نراه اليوم من الرثاثة والإهمال .

وجرى عمل الفقهاء على اعتبار إخصاب المقابر بالعرق الأخضر لوناً محموداً من السنة المطهرة، ومع أنه تم ربط المسألة بجانب غيبي فإن النبي الكريم مضى على اعتبار ذلك سنة دائمة، وهو منهج تعرفه الشريعة حتى اشتهرت في ذلك الحكمة الشهيرة: إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها!!.
الشجرة في القرآن آية ونعمة وبركة، وبها شبه الله نوره العظيم بقوله يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، وعندما وصل النبي الكريم إلى المدينة المنورة أطلق حملة كبيرة للتشجير والغراس وشكل ما يمكن تسميته أول وزارة زراعة في الدولة الإسلامية يوم كلف طلحة بن عبيد الله أن يحفر الآبار بالمدينة وبالفعل فقد حفر فيها أربعة وخمسين بئراً، وبوسعك أن تتصور إلى أي مدى أطلق ذلك النشاط الزراعي الأمر الذي حول المدينة المنورة إلى رقعة خضراء في حياة النبي الكريم ، وفي الواقع فإن قليلاً من االباحثين من يشير إلى إصلاحات النبي الكريم على صعيد التشجير ورعاية الزراعة والحفاظ على الشجرة ، وسبب ذلك كما هو واضح أن المطلوب أن يشار إلى عطاء النبي الكريم في المقام الأول في إنجازاته الكبرى في وحدة العرب وخلاص العالم من المظالم والشرور قبل التنبيه

إلى إصلاحاته الأخرى على صعيد الإدارة والتنمية، وسنشعر بالتقصير والسماجة إن وصفنا رسول الله بأنه إداري ناجح، أو رئيس بلدية عظيم !! ولكن حديثنا هنا ينبغي أن يحملنا على توضيح ذلك.

وفي الخبر أن سلمان الفارسي جاء إلى النبي الكريم يذكر له معاناته في الرق فأمره النبي الكريم أن يكاتب على تحرير نفسه فكاتب سيده على زرع ثلاث مائة نخلة يزرعها له بالعفير ،وكانت هذه المكاتبة مناسبة يدعو فيها الرسول الكريم إلى التشجير قال سلمان: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "أعينوا أخاكم". فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين غرسة، والرجل بعشرين غرسة، والرجل بعشر، حتى إذا اجتمعت إلي ثلاث مائة ودية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب يا سلمان فازرعها لها فإذا فرغت فائتني فأكون أنا أضعها بيدي". قال: فعفرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها، فجعلنا نقرب إليه الغراس ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما مات منها غرسة واحدة.
إنها إرادة واضحة في إطلاق الأرض الخضراء على أكبر رقعة ممكنة وهو ما حققه الإسلام على الأرض ، وهو المعنى الذي تحدث عنه النبي الكريم مراراً عن غوطة الشام المباركة وهي الغوطة التي افترسها (الباطون) حتى النهاية، ولا حول ولا قوة إلا بالله

غوطة دمشق.... الياسمين والبنزين

على الرغم من أنني منغمس في الشأن العام ولكن دعني أعترف لك بأن الواقع كان أسوأ مما توقعت، وخلال مشوار يزيد طوله على عشرين كيلومتراً بين حافتي الغوطة الشرقية من المليحة إلى دوما، عانت فيه سيارتي الأمرَّين من بؤس الطريق وحفراته ومطباته وتصليحاته، حيث كلهم يعملون لأجلك ويأسفون لإزعاجك، لم أصدق أن الأرض التي كانت تفيض لبناً وعسلا والتي كانت تمتلئ بالبساتين الغناء، هي اليوم أرض بلا زرع ولا ضرع ولا ياسمين ولا زهور، لقد مررت بمئات الكراجات والحواصل والمخازن والبنشر ومحلات غيار الزيت ولكنني لم أمر في هذا الطريق كله ببستان واحد!! وبدلاً من أن يعرِّش على أصابعي الياسمين شرش في رئتي البنزين، ولن يصدق أحد أن هذه الأرض هي التي كانت القوافل تسير في أفيائها وتأكل من ثمارها وتحمد الله.
من وجهة نظري فإن الجريمة التي ارتكبت خلال خمسين عاماً بحق غوطة دمشق هي أكبر من أن يشرحها مقال صحفي، وهي عمل يستوفي ركنه الجرمي بكل وضوح، ومن حق هذه الأرض أن يقدم للعدالة كل أولئك الذين استباحوا نضارتها وعافيتها وردوها إلى ركام فوضوي من الباطون، ولكن ما يهمني أن أؤكده هو أن ضياع الغوطة هو معصية مباشرة لله تعالى، فالزرع طاعة والقطع إثم، وحين أنجز الإسلام مشروعه على الأرض فإنه أعلن البلد الحرام أي البلد الآمن الذي يأمن فيه الإنسان والحيوان والنبات، فلا يحل قتل الإنسان ولا صيد الحيوان ولا قطع النبات، وقال النبي بصراحة لعن الله قاطع السدر، أي الشجر!!
ترى كم من لعنة على لسان الأنبياء والمرسلين يستحقها أولئك الذين افترسوا الغوطة من عدرا إلى الباب الشرقي، ومن باب الجابية الغربي إلى مقالع الباطون في الكسوة وخان دنون؟

قال الرسول الكريم سبع يجري للعبد اجرهن بعد موته من علم علما أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو ترك ولجاً صالحاً يدعو له.
تماماً كما أن زرع الشجرة يذكر في درجة بناء المسجد، فإن قطع الشجرة ينبغي أن يعدل هدم المسجد أيضاً!!

إن القرآن يخصص سورة كاملة في القرآن الكريم عن السدود والري والنهضة الزراعية، وعلى رغم أن السورة فيها ذكر نبي الله داود وسليمان، ولكنها سميت باسم سبأ، والقصة باختصار فإن سبأ شعب عربي قديم كان في رغد ونعمة وخصب وري وسد عظيم، وقد سمى الله ذلك آية من آياته، لقد كان لسبأ في مسكنهم آية، وحين فسدوا غضب لله عليهم ودمر سدهم، وقال وأبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور.
بحثت كثيراً عن معنى الغضب الإلهي في حكاية سبأ وعن الأكل الخمط والأثل، رمز بؤس الأرض وقهرها وموتها، فلم أجد أوفى من كلمة واحدة: إنه الباطون، الباطون الذي افترس غوطتنا وألقى بصخوره الكئيبة البلهاء على أنفاس البلاد والعباد، وحول هذه الغوطة إلى مقبرة موت للزرع والضرع والورد والزهر، يزدهر فيها البلوك والشمنتو وغيار الزيت وتجليس السيارات.
إنه ليس من المبالغة في شيء أن نقول إن تصحير غوطة دمشق هو من الكبائر التي يحاسب uليها كل من كان يملك قلماً وحكما وأمراً ثم تقاعس في حماية الربيع الذي استخلفنا الله تعالى في الأرض لرعايته والإحسان إليه: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها
بمناسبة يوم البيئة العالمي

عادة ما نقرأ تاريخ الأنبياء على هيئة وعاظ صارمين، لديهم جملة أوامر جافة معنية بعالم الغيب، يطلون على أقوامهم من عل فيأمرونهم بالصلاة والصيام والحج ثم تكون النتيجة أن القوم يعرضون عن الأوامر العلوية، وتكون النتيجة سلسلة من العذاب والغضب، فمنهم من أخذته الصيحة ومنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا، وتغيب في غمار ذلك صورة الرسالة الكبيرة التي ينبغي أن يحملها الأنبياء بوصفهم قادة الكفاح الإنساني من أجل إعمار الأرض وإسعاد الإنسان.

حين وصل إلى المدينة لم ينظر إليها على أنها قاعة انتظار يحشد فيها ما يمكن من حقد المظلوم لينتصف بها بعد من ظلم الظالم، ويوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، لقد كانت يثرب هي الأرض التي يتطلع إليها الرسول الكريم وأصحابه لبناء العالم الجديد، ولكنهم في الواقع ما إن وصلوا إليها حتى أصابهم بلاؤها واجتوتهم الحمى في يثرب، قالت عائشة: قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض خلقها الله ، وكان بطحان يجري نجلاً، يعنى ماء آجنا أي متغيراً، تعني بذلك أودية المدينة الثلاثة العقيق وبطحان وقناة.

وجعل الصحابة يتساقطون واحداً بعد الآخر في أجواء حمى يثرب، وكانت يهود قد اعتادت أن تلقي الآخام في وادي بطحان وهو يقع في مهب رياح الصبا، وهكذا فقد كانت الأوبئة تقع مباشرة في مهب أنوفهم، ولم يتمكن المهاجرون من التأقلم مع هذا الواقع الجديد فأصابتهم الحمى، وحفظت لنا الذاكرة آهات حسرى على ألسنة الصحابة تشرح ما كابدوه من حمى المدينة، وعلى لسان أبي بكر:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

أما بلال فقد عبر عن حزنه وبؤسه بقوله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

أما عامر بن فهيرة فكان يقول

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه

كانت آهاتهم هذه ترسم صورة ما كابدوه في الواقع البيئي الفاسد الذي تسبب فيه يهود المدينة عن عمد في إفساد هوائها وتلويث أجوائها وازداد ذلك مع كيدهم للمهاجرين ورغبتهم بإخراجهم من المدينة، وقد اشتدت تلك المحاولات كما ذكر المؤرخون فكان جار يهودي للنبي الكريم يتولى إلقاء هذه الأقذار على باب النبي الكريم نفسه!!

وكانت هذه الأجواء القاسية توقظ في نفوس الصحابة مشاعر الحنين إلى أرض مكة التي فارقوها على الرغم من قسوة الطبيعة وشظف العيش وفقد الأمن فيها:

بلاد ألفناها على كل حالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

وتستعذب الأرض التي لا هوا بها ولا ماؤها حلو ولكنها وطن
وكان حنينهم لمكة يأكل منهم أوبار الإبل، ويسكب مدامعهم ، ويبعث قرائحهم

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الرجال هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ومع أن رسالة النبي الكريم كانت تتجه إلى تصحيح علاقة الأرض بالسماء ودعوة الناس لعبادة الخالق وتطهير الأرض من الجبت والطاغوت، ولكنه أيضاً كان يحمل على كتفيه هم إصلاح البيئة التي كان يعيش فيها قومه، ولم يكتف هنا بأن رفع يديه إلى السماء ليقول اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وانقل وباءها إلى الجحفة!! بل أطلق مشروعاً شعبياً للإصلاح البيئي، وبدأ يقوم بنفسه وأصحابه بتطوير مجرى بطحان والعقيق، وانطلق أصحابه في وعي بيئي فريد لتطهير الأرض من ذلك الوباء، وحرق ما كان فيه من سبب الوباء، وتحويل مكب النفايات في المدينة باتجاه الجحفة حيث رياح الدبور التي لم تكن لتهب على المدينة، وأعاد بذلك العافية إلى ريح الصبا التي كانت تهب على المدينة من صوب بطحان والعقيق.
وبموازاة ذلك أطلق النبي الكريم مشروعاً زراعيا طموحاً عهد به إلى عدد من أصحابه الخبراء وأمر عليهم طلحة بن عبيد الله ، وأنجز طلحة حفر أربعة وخمسين بئراً جديدة في المدينة، وتمكن بدراسة بيئية دقيقة من إنشاء عدد من المصانع والجوابي لتخزين الماء ثم نظم مسيله في قنوات مدروسة، ورويت أرض المدينة لأول مرة بالقنوات بعد أن كانت تروى بالناضح من قبل، وأنجز على أرض المدينة خلال أعوام قليلة مضاعفة الرقعة الخضراء وزيادة المحصول الزراعي في النخيل، وكان النبي الكريم يباشر بنفسه تطور الحركة الزراعية وربما كانت القصة المشهورة حول تأبير النخل إحدى مظاهر مشاركته الدؤوبة لتطوير النشاط الزراعي والبيئي في المدينة.

على أن رعايته للبيئة تجلت في جانب آخر أشد دلالة وأقرب للمقصود حين أعلن عن مكة المكرمة أرضاً حراماً، والأرض الحرام هي في الواقع محمية بيئية حقيقية إذ يحرم فيها القتل والقتال، كما يحرم فيها الصيد واستفزاز الحيوان، ويحرم فيها قلع الشجر وقطع السدر، وهذه الشروط هي في الواقع إرهاصات مبكرة واضحة لنظام المحميات الطبيعي الذي لا بد منه لفهم حاجة الإنسان والمجتمع.
وعادة ما تغلب النظرة الميتافيزيقية حول الأرض الحرام فلا يفهم منها الناس إلا الأرض المقدسة، ولكن الواقع ليس كذلك فقد حرم النبي مكة أولاً ثم حرم المدينة تالياً، ثم أعلن عن وادي وج في الطائف أرضاً حراماً، وقال صيد (وج) وعضاهه حرم محرم لله، ووج هو وادي الطائف، وقيل بل الطائف نفسها، والعضاه هي الشجر.
وكان كتاب رسول الله الذي كتبه لأهل الطائف: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين : إن شجر وج (الطائف) وصيده لا يعضد، أي لا يقطع، ومن وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبي محمد وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله.

والواقع أنه ليس في المسألة أسرار، والأمر لا يرتبط مطلقاً ببيت معمور في السماء على حذاء وادي الطائف، ولا بأطيط سماء وج من طول ما يجأر فيه الساجدون وتسبح الملائكة، بل المسألة في غاية البساطة، فالمطلوب هو حماية أرض الطائف من الاعتداء البيئي، وحماية الدورة البيئية في هذا الوادي الغني نباتياً وحيوانيا من العبث والصيد الذي يخل بدورة الأرض.

إن القرآن الكريم قدم قراءة ذات دلالة حين يقول: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وفي آية أخرى ولا تعثوا في الأرض مفسدين.
إنه هنا يشير إلى الأرض بغض النظر عن سكانها من مؤمنين أو ملحدين، فالإحسان إلى الأرض واجب المؤمن، أما هداية الخلق فهو شأن الله سبحانه، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.
وفي إشارة واضحة إلى الفساد البيئي المدمر الذي تمارسه اليوم القوى العسكرية الكبرى في العالم، حاء ت الآية الكريمة كالنص على الشر النووي الذي يهدد العالم: وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد.

لا أشك أبداً أن لو كان رسول الله بيننا اليوم لكان قد أعلن في كل يوم محمية طبيعية جديدة، وأنا أجزم أنه كان ماضياً لجعل كل مناطق الازدهار الحيواني والبيئي مناطق محمية، أو أرضاً حراماً، وهذا بالضبط ما حققه في الحواضر الثلاثة الرئيسية في أرض الحجاز، مكة والمدينة والطائف.

أشعر بالحرج وأنا أتحدث عن البيئة في الإسلام وأنا أشاهد مدينتي المحبوبة دمشق تنسحق تحت فؤوس العشوائية والفوضى العمرانية حيت تم اغتيال الغوطة وحلقت سحابة سوداء فوق رؤوس أهل دمشق نتيجة الاستخدام السوء لمفرزات الحضارة، وعدم وجود برنامج بيئي واضح يحمي العباد والبلاد.
لقد أنجز النبي الكريم من وجهة نظري خلال عشر سنوات من الحكم الرشيد مسجداً واحداً وثلاث محميات طبيعية، واليوم بعد مرور أربعة عشر قرناً فإن السياق الطبيعي أن نشاهد في العالم اليوم من المحميات الطبيعية ثلاثة أضعاف المساجد في الأرض، ولكن الحقيقة أن المآذن ارتفعت في كل مكان في الأرض، وتركت الطبيعة ليفترسها جشع العمران وبطش الباطون، ولدينا اليوم مئات آلاف المساجد ولكن ليس لدينا إلا محميات بيئية متواضعة تتم حمايتها على استحياء ويتم افتراسها بشراسة وبطش، وها نحن أصحاب المنابر نعجز عن تحويل إرادتنا البيئية إلى مشاريع حياة وعطاء مع أن خطبنا لا تزال طافحة بالغضب والصخب وممارسة الوعد والوعيد.
تماماً كما قال إقبال:
منائركم علت في كل حي ومسجدكم من العباد خالي
وجلجلة الأذان بكل أرض ولكن أين صوت من بلال
وعند الناس فلسفة وفكر ولكن أين تلقين الغزالي؟

العافية ربيع الحياة

رمضان والحرب على التدخين

لم يكن التدخين موجوداً على عصر الرسالة ولدي قناعة تامة أنه لو كان في عهد الرسالة لكانت حرب النبي عليه لا تقل عن حربه على الخمر والميسر بحامع الضرر الأكيد في كل منها، ومع ظهور التدخين فإنه لم يكن للأمة أن تتحدث في هذه المسألة بدليل من نص كتاب أو سنة، الأمر الذي نتج عنه ترددهم في الفتيا بالتدخين، وصدرت بالطبع فتاوى تبيح وفتاوى تحرم، ولكن أهل المعرفة والعلم ظلوا يشككون في التدخين، ويرون أنه من اللغو الذي لا يضر ولا ينفع وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم عن اللغو معرضون، بل صدرت عدة فتاوى تجعله في الطيبات التي من الله بها على الناس لتحسين مزاجهم، وهذا ما كان شائعاً خاصة لدى علماء الجزيرة السورية ولا زلت أذكر الملا عبد العزيز جعفر الذي كنا نقرأ عليه ألفية ابن مالك صغاراً وكان يبتهج حين يقدم لنا السيكارة اللف!! طبعاً كنا نشكره ولا نشرب منها ولكننا نستغرب عدم إدراكهم لشرها وضرها.
ولكن التدخين بعد ذلك دخل مخابر القوم وعادت الدراسات الصحية جازمة بدون أدنى تردد بأن التدخين كارثة على صحة الإنسان وبيئة الإنسان وأنه داء فتاك يتسبب في هلاك العباد والبلاد.

ليست لدي بالطبع مؤسسة فتوى ولا يمكنني أن أنفرد بالفتيا في هذه المسألة وأنا أعتقد أنها ينبغي أن تكون على رأس اهتمامات الفتوى للخروج برأي يساعد الناس في الخلاص من شر التدخين ومضاره، ولكنني عمدت ذات يوم إلى إقناع الناس بحوار من البرهان، قلت للمصلين في جامع كفرسوسة وقد كانوا مئات من الناس: من منكم يعتقد أن التدخين من الخبائث، رفع جميع من في المسجد أصبعهم بالتأييد لهذا وقالوا نعم إنها من الخبائث، وحين سألتهم من يقول منكم إن التدخين من الطيبات رفع شخص واحد يده بشجاعة وقال أنا أعتقد أنها من الطيبات!! قلت لهم الآن فيما يتصل بالفريق الذي رفع يده لم يعد هناك أدنى شك في أن التدخين حرام بالمطلق فقد قال الله تعالى ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.
وفي الحديث نهى رسول الله عن كل مسكر ومفتر، والمسكر معروف فما هو المفتِّر إذن؟
من العجيب أننا نخوض اليوم حملات مستمرة للحفاظ على البيئة تكلفنا الملايين، وتلزم الدولة بإغلاق عشرات المؤسسات الصناعية ومنع آلاف وسائل النقل للحفاظ

على البيئة أن يتسلل منها إلى الإنسان ضرر أو آفة، ولكننا في الوقت نفسه ندفع المال لندخل التلوث نفسه مباشرة إلى داخل الرئة مباشرة ليبدأ مشواره في قتل الإنسان!!

لا أريد هنا أن أقدم الأدلة من الصحة على ما يعرفه الجميع من آفات التدخين وشروره وأضراره، وما يترتب عليه من ضرر صحي بالغ ، فالدراسات الطبية تكفلت بذلك إلى الغاية ولكنني أدعو الصائم لإدراك أهمية ما يصنع حين يمتنع عن التدخين، لقد أعانك رمضان على نصف المشكلة وصبرك النهار كله، فساعد نفسك على بقية الليل، بل إن كثيراً من المدخنين يمتنعون عن التدخين في شهر رمضان كله ولكنهم سرعان ما يعودوا بعد رمضان عودة حليمة لعادتها القديمة.

أعتقد أن الصيام أعطاك قدراً كافياً من الإرادة للتغلب على آفة التدخين بقي أن تساعد نفسك والله في عون العب ما كان العبد في عون أخيه، وكذلك ما كان العبد في عون نفسه.

يقولون إن الصائم كثير النزق شديد الغضب، ومراراً يصرخ في وجهك اتركني وشأني!! ، صائم وواصلة معي إلى .... ومن خلال الاستقراء فإن الصوم يهذب الأخلاق ويدفع الغضب عن الإنسان ولكن هؤلاء الذين يعانون من شدة الغضب هم في الواقع أهل التدخين، فالامتناع عن الطعام لا يوقد الغضب ولكن الغضب قادم فقط من نار السيكارة، فهل يتعظ المدخنون؟

أخي الصائم لقد قطعت في رمضان نصف المشوار فاتق الله في النصف الآخر، وألق سيجارتك، ولا تزرع السموم في جوف يترنم في رمضان بذكر الله ويسعد بتلاوة كلامه.

أتمنى أن يقع كلامي هذا في مسمع القراء الكرام، على أنني لا أنسى أن أول المقصود منهم المحرر والكاتب والمنضد والمخرج الذين سيعدون هذه الدراسة.

المحراب والمحراث
رسالتان من أجل ربيع الأرض

سمي المحراب محراباً لأن المؤمن يحارب فيه الشيطان ويعبد فيه الرحمن، وهو بالأصل غرفة مقصورة للعبادة، وهي الحجرة التي اتخذتها مريم حجاباً من دون قومها، وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، وظلت كذلك في الأديان إلى أن جاء الإسلام فأمر أن يكون الإمام بين الناس ولم يعد ثمة وجه للانفصال عن الناس، وصار المطلوب هو التواصل بالأمة إلى الوجه الذي ترتقي فيه القلوب إلى علام الغيوب، فاقتصر المحراب على فجوة في جدار القبلة ترمز إلى مكان الإمام دون أن تمنحه فرصة للانفراد عن الناس والتميز عليهم، وهو جزء من رسالة الإسلام في هدم امتيازات الكهنة على الناس، وهي امتيازات تعاود ظهورها بين الحين والآخر تحت عمائم شتى تستوجب الإنكار الشديد من أهل التوحيد.

أما المحراث فهو اسم آلة من الحراثة، وهو في الإسلام أفضل المكاسب، وفي جدل بين علماء الشريعة حول أفضل المكاسب جزم الماوردي بأن الزرع أفضل المكاسب وذلك أن التاجر يشتري بضاعته ويرقب الأسواق والسيولة والقوانين التجارية والتصدير، والصانع يصنع سلعته ويرقب أنظمة القطع ومشروعات الحكومة، أما الزارع فإنه يبذر الحب في الأرض ويتوكل على الله، وإلى السماء دعاؤه ورجاؤه يقول اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين.

وقال النووي إن أفضل المكاسب هو ما كان بعمل اليد تجارة أو صناعة أو زراعة.

على كل حال فكسب الزارع هو أيضاً كسب يده وقد رأى النبي الكريم رجلاً مجلت يداه في الزرع فأثنى عليه وقال: هذه يد يحبها الله ورسوله.

أما سبب كتابتي هذه السطور اليوم فهو ما أنعم الله به على سوريا من نعمة الغيث الأسبوع الماضي، فقد بلغ مجموع الهطولات في شمال وشرق سوريا خمسة أضعاف ما كان يهطل في المواسم السابقة وحصلت دير الزور على ثلثي الموسم قبل أن يدخل فصل الشتاء وهي حالة نادرة ولكنها تحملنا مباشرة إلى قول النبي ρ إن الله يحب من أحدكم إذا أحدث له نعمة أن عندها شكراً.

ولكل نعمة شكر، فشكر العلم التعليم، وشكر المال الإنفاق، وشكر الجاه نصرة المظلوم، وشكر القوة الدفاع عن الحق، وشكر الذكاء احترام الخلق، وشكر الجمال العفاف، وشكر السلطة العدل، وشكر العافية الصدقة، وشكر الفصاحة قول الحق، وشكر الغيث يتعين في تسخيره لما أنزله الله، فالأفراد مأمورون برعاية النعمة وحسن التدبير، والدولة مأمورة ببناء السدود وحماية الأنهار وكرائها وتنظيفها وتجميلها، ويجب أن تعود ثقافة الغرس والزرع إلى مكانها التعبدي وألا يكتفى بها في ميدان العمل الاستثماري والسياحي.

قال ρ سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته: من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته، وقال: التمسوا الرزق في خبايا الأرض.

وشكر نعمة الغيث يحتم مواجهة عدو مباشر هو التصحر الذي يفترس البساتين، ويلون اللون الأخضر بالبني، ويخنق رئة الحياة التي يتنفسها الناس.

إن السماح للباطون بافتراس غوطة دمشق وزراعة الحجر الأصم فيها ليس مجرد خطأ هندسي، إنه في العمق معصية كبيرة لله سبحانه، وخطأ ديني فاحش، وتجفيف نهر بردى من مجراه ليس مجرد سوء تدبير قامت به البلديات، وأخطاء وقعت بها مراكز الاستشعار والدراسات، إنه في الحقيقة إحدى الكبائر الموجبة لسخط الله سبحانه وتعالى، وهي التي شرحها القرآن الكريم بقوله: لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، وواضح من قراءة الآية أن النعمة التي يمن بها الله على سبأ إنما كانت في سد مأرب الذي أثمر نهضة زراعية حقيقية، وأن الغضب الإلهي الذي نزل بهم إنما تمثل في انهيار السد وضياع الثروة المائية، ومع أن هذا الانهيار هو مجرد خطأ هندسي وإداري يتعلق بأحجار السد وجدرانه وعنابره ولكنه وصف في القرآن بأنه انتقام إلهي رهيب وأنه قرينة الكفر والفجور، وهل نجازي إلا الكفور؟؟

وددت لو زودنا هنا فقهاء التكفير بمفردات قواميس الكفر والزندقة والضلالة والانحراف ومجدداً مفردات العمالة والماسونية والافتتان بالغرب التي تعودنا أن نسمعها عندما يفتى بدخول الحائض المسجد أو الأضحية بالدجاج بدل الشاة أو مصافحة المرأة فهذا السلوك الفردي لا يمكن أن يقارن على الإطلاق بهذه الكبائر التي تورط فيها المجتمع برمته عبر ولاة أموره في هدم البيئة النظيفة التي خلقها الله في أرض الشام خلال التاريخ.

حين ينص القرآن صراحة على منزلة العلماء في سورة فاطر: إنما يخشى الله من عباده العلماء، فإن الخاطر يقفز عادة إلى أصحاب المحراب الذين يسهرون على إمامة الناس في الصلاة والمناجاة والدعاء، وهم بلا شك مشمولون بدلالة الآية ، ولكن نادراً ما نتذكر أصحاب المحراث، الذين يلتمسون الرزق في خبايا الأرض ويقومون برسالتهم في تسخير الأرض لإطعام الطعام لعباد الله، وجعل الحياة خضراء ندية طهوراً تسبح الله ويقتات منها عباده، ويجب القول إن دلالة الآية أعم وأشمل وهي تتصل بكل علم نافع يعود على الناس بالخير والبركة والمعروف والإحسان.

في صدر الآية قول الله تعالى: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وواضح أن المراد هنا هو علم الزراعة والاستمطار، ثم قال تعالى: ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلفاً ألوانها وغرابيب سود، والغرابيب السود هي الجبال شديدة الدكنة، عبر عنها بالغرابيب تذكيراً بسواد لون الغراب الذي لا يشيب.

وهذا كما هو واضح يتصل بعلوم الجيولوجيا وطبقات الأرض، ثم يقول ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، وواضح أن المراد هنا هي علوم الحيوان والنبات وبيولوجيا الإنسان، وهنا بالضبط يرد قول الله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء!!

إن السياق كله في خدمة حقيقة كبرى هي أن الله تعالى جعل كل علم نافع، وكل سعي في تسخير خيرات الأرض عبادة وطاعة لله، وامتثالاً لأمره، وأن آيات الله في المنابر ليست أكثر من آيات الله في المخابر، وأن العبادة في المحراب لا تغني عن العبادة في المحراث.

ومباشرة يحق لنا أن نتساءل هل جفاف بردى وقويق بهذه الصورة المحزنة هو صورة طاعة أم شكل معصية، هل يشفع لنا بناء المساجد والمدارس والمطاعم على ضفافه ونحن نخنقه بتحويل مائه عن مجراه كل يوم، ونحوله من جنة عدن إلى محض وخم؟ وإلى متى سنظل نفشل في تأمين حاجة دمشق الكبرى من الماء إلا على حساب شرايينه وأوردته التي يعيش بها ويمنحنا من خلالها الحياة والجمال؟ وأي حزن سيعصف بضفاف ما تبقى من النهر المفجوع عندما يتذكر أغنية أمير الشعراء أحمد شوقي:

جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك دون الخلد رضوان؟

سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين
قراءة فقهية ليوم المرور العالمي

الرابع من أيار يوم المرور العالمي، وهو اختيار الأمم المتحدة من أجل توفير طرقات آمنة، ومساعدة شرطي المرور على أداء رسالته في مساعدة الناس على السير بأمان وانتظام، ولكن ما عسانا نكتب عن هذا اليوم من خلفية إسلامية؟

يبدو الحديث عن المرور من أفق الفقه الإسلامي سمجاً للبعض ولا يخلو من تكلف ولكنني أصارحك بأنني لا أراه كذلك وأشعر بأن المرور بما هو نمط سلوكي فإن الإسلام لا بد أن يقول فيه كلمته.

ما هو الفقه الإسلامي؟ إنه ديوان العقل المؤمن في فترة صعود حضاري، وهو سجل لكل ما أبدعه المفكرون والباحثون والإداريون والفقهاء في التاريخ الإسلامي لشكل الحياة، وهو يستضيء بنور القرآن الكريم والسنة المطهرة ولكنه لا يتوقف عند حدود النص بل ينطلق في فضاء العقل فيما سكت عنه النص، ولا يقعد عن الاجتهاد حتى فيما ورد فيه النص.

ولست أقصد بالطبع هنا أن تكون وصايا الرسول الأكرم في شأن الطريق هي المواد القانونية الملزمة للناس في الانتقال والحركة والسير بقدر ما أقصد إلى تقديم تجربة ذات بال قام بها النبي الكريم من أجل جعل حركة الناس أكثر أمناً وسلامة وبالتالي من أحل إطلاق رسالة العقل في الاستنارة بهذه التجارب الرائدة لبناء نظام طرقي حديث يحقق مقاصد الشريعة في التواصل بين الشعوب وتحقق الأمن والسلامة فيها.

ولا أشك أبداً أن النبي الكريم كان يتطلع إلى نظام طرقي فريد آمن، حيث كان الأمن مادة مفقودة في جزيرة العرب وكان الناس يعيشون في الخوف ثمانية أشهر وتمضي الليالي ولا يدرون عدتها ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم، وعلى الرغم من مشهد الخوف هذا فقد تطلع الرسول الكريم إلى نظام طرقي آمن اعتبره من مقاصد رسالته، وحين كان الناس يبيتون في الحديد من الخوف قال الرسول الكريم لعدي بن حاتم: يا عدي لعله يزهدك في الإسلام ما تراه من أمرنا وأننا لا نبيت إلا في الحديد، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى تمشي الظعينة الآمنة من صنعاء إلى حضرموت لا تخاف إلا الله والذئب على غنمها، ولا أكتمك أنني لا أفهم هذا النص في ضباب الخوارق والمعجزات، على أساس أن ملائكة بيض على خيول بلق كانت تجوب أرض الجزيرة لتوفير الأمن، وأن الأفاعي ستعانق الحمائم، وأن من مس امرأة مسافرة بسوء فإنه سيتقاذفه الجن الأزرق والعفاريت الحمر، وتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق!! بل إنني أفهم ذلك في ضياء السنن، وحدود المسؤولية والواجب، وأفهمه على مستوى القرن السابع الميلادي على أنه خانات طرقية وعسس جوالة ودواب مراقبة ورعاية صحية متوافرة، ودوريات أمن متنقلة، وحدود رادعة تقام بالعدل، وهو ما قامت به الخلافة الراشدة إلى حد بعيد، وأفهمه على مستوى هذا العصر بأنه مسؤولية الدولة في توفير شاشات مراقبة فورية

الكترونية في السيارات، ومحطات استراحة مجهزة بالكمبيوترات، وشاشات رادار حديثة في التبلوهات، وسيارات إسعاف ومرور متنقلة، وإشارات واضحة وطرق معبدة وجسور صحيحة وعقد حكيمة، وحواجز إسمنتية ويافطات فوسفورية، ومسامير عاكسة وأعمدة إنارة، وسيارات وسفن وطائرات مراقبة فنياً، ومراف ئ ومطارات حديثة آمنة، خاضعة لنظم الأياتا الضامنة وغير ذلك من سبل الأمان، فبهده الأساليب يمكن اليوم للظعينة الآمنة أن تتحرك من صنعاء إلى حضرموت لا تخاف إلا الله والذئب على غنمها!!

وبعيداً عن طرق السفر الدولية كانت وصايا النبي الأكرم تتكرر في شأن الطريق المحلي: إياكم والجلوس في الطرقات قالوا يا رسول الله مجالسنا ما لنا فيها من بد، قال فإن لم يكن لكم بد منها فأعطوا الطريق حقه، قالوا وما حق الطريق؟ قال غض البصر وكف الأذى وإفشاء السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي حديث آخر الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله محمد رسول الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان.

وإماطة الأذى عن الطريق الذي هو شعبة من شعب الإيمان لا تقتصر أيضاً على كنس الطريق وركل الحجارة فيه، بل تتطلب بكل أمانة توفير الطريق الآمن من الأخطار والمطبات والمصائب، وتوقير الجسور والأنفاق الضرورية لمسير آمن، والبحث عن سبل لتخفيف الزحام والاختناقات المرورية، وتأمين ممرات سلسة وآمنة، وبالتالي إماطة الأذى عن الطريق سواء كان هذا الأذى حفراً أو مطبات أو مسالك للحيوانات أو صخوراً تهاوت من الجبال.

وفي القرآن الكريم من رعاية الطريق أدب كريم فقد أمر المسافر أن يدعو بدعاء السفر في منطلق دربه: فيقول سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

ولكن رعاية الطريق في الإسلام لم تقتصر عند حدود الدعاء والموعظة والنصيحة بل تحولت إلى آفاق أخرى ترعاها مؤسسات اجتماعية حقيقية تتولى رعايتها والإشراف عليها بحيث تؤسس لانتقال آمن بين المدائن والقرى، ومع انطلاق الحضارة العربية والإسلامية فإن رعاية الطريق انطلقت لتأخذ بعداً آخر فقد دخل ابن السبيل في مصارف الزكاة وهو الرجل ينقطع زاده في الطريق وينقلب إلى المدائن بلا مال ولا زاد فيصبح إيواؤه وغياثه من أبر مصارف الزكاة، وبسبب من ذلك فقد تطورت مرافق الطريق في الإسلام، وأصبحت الخانات في الطرق من أهم معالم السرى في البلاد الإسلامية، وفي بلاد الشام على سبيل المثال تنتشر هذه الخانات على طول طرق السفر ، حيث يبنى في كل مرحلة خان يأوي إليه المسافر (المرحلة اصطلاح فقهي لما يقطعه المسافر على دابته في يوم وليلة أي نحو أربعين كيلومتراً) فيجد طعامه وشرابه من مال الزكاة، فعلى طريق القدس مثلاً تجد خان الشيح ثم خان ثديم في سعسع ثم خان أرنبة ثم خان الأحمر، وكثرت الخانات على درب القدس لأنه طريق الحجاج والمعتمرين، وعلى طريق الأردن تجد خان دنون وخان الصنمين وعلى طريق حمص تجد خان العروس وخان قارة وعلى طريق بغداد نجد خان عياش، وفي هذه الخانات كان المسافر يجد الطعام والشراب والزاد، وحاجة الدابة التي ترد الماء والسقيا لتستأنف المسير.

وهذا السلوك الحضاري القرآني كان محل ثناء من الله سبحانه في سورة سبأ إذ يقول: وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين، فجعل توفر المحطات والخانات في السفر نعمة تستوجب الثناء من الله تعالى وظاهر أن الآية واضحة في الثناء على من يحيي ذلك الأدب القرآني الكريم، وأن ثناء الله تعالى ورد على بناء المحطات على طريق السفر وكذلك على توفر الأمن للمسافر على الطرقات، وهو يؤسس لمسؤولية حقيقية على المجتمع لترتيب الأمن في الليل والنهار في طريق السفر، وهو لا يعني بالطبع مجرد الدعاء والصلاة والضراعة بل هو يفترض قيام الأمة بتوفير سبل السلامة على طرق السفر من محطات استراحة ومحطات وقود ووسائل اتصال ومراكز إسعاف وكاسحات

جليد ورافعات طوارئ وسيارات إطفاء ولا أشك أن لو مضت الحضارة الإسلامية على خيارها المأمول لكانت محطات المسافرين في البلاد الإسلامية تضارع أرقى المحطات التي نراها في السفر بين المدن الكبرى في العالم من الاتصالات والأنترنت والاستراحة والاستجمام والتسوق.
وكذلك فإنه اعتبر أن قلة المحطات على طريق السفر، وعدم توفر وسائل الإسعاف والإغاثة إساءة ومعصية لما يترتب عليه من أخطار، وهو بالتالي مسؤولية الدولة وإذا قصرت فيها فإنها تستنزل الغضب الإلهي: فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور.
ومن الأحكام الشرعية التي تتعلق بالمرور ما قرره فقهاء مجمع الفقه الإسلامي اعتبار من يتسبب في قتل إنسان قاتلاً إذا كانت سرعة السيارة في المدينة أكثر من مائة كيلومتر، وفي طرق السفر أكثر من مائة وأربعين كيلومتراً، ولا شك أن الحكم بذلك يشتمل على رادع حقيقي للسائقين الذين لا يبالون بأرواح الناس، وهذا الأمر من النظام العام ويجوز لولي الأمر أن يفرض على الناس ما يراه من أحكام رادعة من أجل أن يكف الأذى الذي يتسبب به القادة المتهورون في سياراتهم.
ولا نحتاج لكبير جهد لندرك أن نظم المرور الحديثة اليوم من الإشارات الضوئية وحزام الأمان وجهاز الإطفاء والفواصل الطرقية وبالونات الهواء هي تطبيقات حقيقية لوصايا الرسول الكريم في الأمن الطرقي ووجوب حماية النفس والروح والمال، ولا شك أن التفريط بذلك يعتبر معصية لله سواء كان من الأفراد أو من الدولة.
ويقع نظام السير وكل ما طرأ عليه من تحسينات وتطوير في دائرة قول الله تعالى: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور

النبي والرياضة
الربيع في بطحاء مكة

لا أشك أولاً أن الأمة الإسلامية لو كانت في أيام صعودها الحضاري لكان فريقنا الرياضي ينافس من أجل ذهبية المونديال، ويتألق في ملاعب ألمانيا نجوماً وحكاماً ولاعبين ومعلقين، فنحن لا نعيش خارج التاريخ، وثقافتنا الإسلامية لا تتناقض مع قيم الرياضة ورسالتها، فهي لغة التعارف الأممي، وهي بشكل أو بآخر لغة العالم اليوم، وهي منطلق واضح لبناء الجسم السليم وفي الأدب النبوي الواضح علموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل، ولست هنا في معرض الاستدلال الفقهي لموقع الرياضة في الشريعة ولكن لا بأس بهذه الجولة السريعة في رياض السنة النبوية لنقرأ فيها نبياً عظيماً كان يؤكد كل يوم ألف مرة أنه إنسان وأنه يحمل مشروعاً إنسانياً، وأنه يقدر كل مشاعر الإنسان قدرها، ولو كان في الأرض ملائكة لنزل الله عليهم من السماء ملكاً رسولاً ولكنهم بشر وقد أرسل الله فيهم بشراً مثلهم.
تحدث السيدة الطاهرة عائشة قالت دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثٍ فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ ، وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَانْتَهَرَنِي وَقَالَ: مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ رسول الله فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ: دعهما يا أبا بكر فإنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا، وبذلك فقد كانت رؤيته للحياة أكثر شفافية من رؤية أصحابه المقربين الذين عسر عليهم أن يفهموا متابعته للغناء البريء تقدمه فتيات موهوبات في معاني كريمة ودافئة، ولم يدركوا أن هذه الشريعة جاءت لترفع عن الناس الحرج، ولتحل لهم الطيبات وتحرم عليهم الخبائث، وليس لتدخلهم في مزيد من التابو الذي يعزز مكانة الكاهن ولكنه يخنق روح الإنسان.
في مسجده الشريف كان الرسول الكريم يبتهج بالتنافس الرياضي الساخن وربما كان قد أعد في مسجده ركناً لذلك، وقد دعا عائشة لحضور أحد هذه المهرجانات الرياضية التي كان يؤديها الأحباش في المسجد، وقال لها يا عائشة تشتهين تنظرين، وتروي عائشة الخبر في شفافية وحبور فتقول، فقمت معه أرقب السودان يلعبون بالحراب وخدي على خده، حتى نعست فقال حسبك!!
بكل براءة إنه مشهد زوجين من الطراز الرفيع يشاركان في مهرجان رياضي بدفء وعافية، وحين تقارب بين هذه الروايات ولا بأس أن تقول إن النبي الكريم كان من مشجعي الفريق الأدرعي وكانت عائشة تشجع الفريق الرفداوي، وكان يقول في تشجيعه خلال المباراة ارموا يا بني أرفدة فإن أباكم كان رامياً وفي رواية أخرى قال لهم: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع ابن الأدرع!!

فأمسك القوم قسيهم وقالوا يا رسول الله من كنت معه غلب، كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فضحك النبي وقال: ارموا وأنا معكم كلكم.
وأما الخيل فلا نحتاج إلى دليل لنعلم مدى إعجاب النبي الكريم برياضة ركوب الخيل، وهو القائل الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، ويقول: ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار وعليكم بكل كميت أغر محجل أو أشقر أغر محجل أو أدهم أغر محجل، ويقول الخيل ثلاثة فهي لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وزر.
بالطبع الاستدلال الفقهي للمسألة الرياضية والترجيح بين الأدلة ينعقد في الندوات العلمية وليس على صحائف جريدة الثورة، ولكن الناس تتساءل هذه الأيام عن جنون المونديال، وتراصف أعلام الدول الغربية على شرفات دمشق وحلب والمدن السورية، والوسائل البهلوانية التي يمارسها جيل الشباب للتخلص من أساليب صالح كامل الاحتكارية التي جعلت لذة متابعة المونديال مقترنة بالعفرتة الالكترونية لفك الكود والتشفير ومتابعة النجوم المفضلين، وتطرح ألف سؤال عن الرياضة بين الشريعة والحياة.

ولكن الحديث عن المونديال بواقعية لا ينبغي أن يدفع إلى إقرار كل ما يمارس في المونديال من أداء سلبي لعل أبشعه ما نتابعه كل يوم من تسليع الإنسان، وتسلط الشركات الإعلامية العملاقة على مقدرات الحشر الرياضي العظيم بحيث يصبح لكل موقع عين في أفق المونديال تسعيرة مرقمة بالدولار الأبله، تحتله شركة تجارية تغري ما في جيبك بالاندفاع نحو خزائنهم وأرصدتهم وبالتالي طرح التنافس المادي المحموم الذي يطارد بضراوة روح الفينيق الأول الذي كان يستلهم جوبيتر في معابد الرياضة الأولى حيث كان المجد للإنسان.
المونديال يجب أن يكون مناسبة تؤكد لك أن المادة في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة المادة، وأن رسالة الرياضة في الخلود كما رسمها الفلاسفة الأوائل أن تطلق الروح الإنسانية من أغلالها لتدفعها إلى معبد الروح، حيث تستحق أن تخلد كما فينوس وسبارتاكوس في خيال الأرواح الكبيرة التواقة إلى الحرية.
ربما كان ضرورياً لنشعر بطغيان الدولار على شعلة الأولمبياد أن تقوم شبكة إعلامية باحتكار المونديال ومن ثم تقيؤه سلعاً على - حد تعبير الدكتور طيب- وإنجاز احتكار عربي لا تزال القارات الخمس قاصرة عن إنتاجه أو تفهمه بهذه الطريقة القاسية والتي أهون ما توصف به أنها لا تمت للروح الرياضية بصلة لا من قريب ولا من بعيد وهي الروح التي كافح أبطالها خلال التاريخ ليمتعوا العالم بمظهر الإنسان الجبار الذي نسجه الله بيمينه ونفخ فيه من روحه.
مع حبي للرياضة ولكنني لم أتمكن هذه المرة من حفظ أسماء اللاعبين الكبيرة ولا زلت عند حدود رونالدو وزين الدين زيدان، وبقية الأسماء التي في الخاطر هي من نوع بيليه وبكنباور ومولر وياشين وكرويف وهي أسماء ستبدو غير مفهومة لأولادي وهم يرصدون الجديد من الفانيلات الذهبية في مونيخ، ولكن ذلك كله

يعزز التساؤل: هل يبدو اهتمام أبنائنا بالمونديال ورفع أعلام الدول المشاركة فيه بصورة صادمة مبرراً في هذه المرحلة المحمومة من الصراع مع الغرب الاستبدادي.
هل يشعر أبناؤنا الذين يرفعون هذه الأعلام أن أهلنا في قطاع غزة لا يتاح لهم أن يتفرجوا على المونديال، ليس لأنهم لا يعرفون فك الكود المشفر ولا لأنهم لا يمتلكون مائتي دولار للشركة المحتكرة، ولكن لأنهم لا يجدون الكهرباء بعد أن بطش الإسرائيلي بكل مقومات البلد وأحال غزة هاشم إلى ظلام دامس، أراده بلا عمل ولا أمل.
سوريا طول تاريخها متفرجة في المونديال في موقع مفعول به منصوب، ولكنها هذه المرة أيضاً لم تعد تتمكن من الاحتفاظ بوظيفتها التقليدية كمتفرجة بعد أن بدا لإحدى قنوات العرب أن ترقم بالدولار خلايا الإبصار العربي، وتحيل عملية الإبصار إلى لعبة تجارية خاوية جلفة غير مسكونة بأي روح.
قبل سنوات أثارت الأرقام المعلنة لانتقال اللاعبين من ناد إلى آخر حفيظة البابا يوحنا بولس الثاني فأصدر فتواه الشهيرة بتحريم هذا اللون من الاتجار حفاظاً على كرامة الإنسان ورعاية للشعوب المقهورة المغلوبة بعد أن ثبت أن قدم اللاعب البرتغالي الذي تم بيعه بخمسة وستين مليون دولار أصبحت أكثر أهمية من بلاد بحالها تئن تحت الفقر والمجاعة، ويمكن رفع المجاعة القاتلة عنها بقدم واحدة منه لا بقدمين.

لا أشك أبداً أن روح الإسلام الأول الذي كان يرسمه النبي الكريم بعفويته وبساطته، كان بإمكانه أن ينقذ الرياضة العالمية من وهدة الانحطاط المادي وأن يكسبها بعداً إيجابياً في العلاقة بين الإنسان والربيع وتالياً بين الإنسان وبين الحياة النابضة بالبشر والحب.

إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها

أي المكاسب أفضل؟ سؤال طرحه علماء الشريعة في المفاضلة بين التجارة والصناعة والزراعة، حملتني إلى ظلاله رائحة الأرض وهي تستقبل الماء القادم من السماء حديث عهد بربه والذي سعدت به البلاد خلال الأيام الماضية.
فالتجار يقولون إن النبي الكريم مارس التجارة وأنها بذلك أفضل المكاسب وأن الجالب مرزوق والمحتكر ملعون، والذين فضلوا الصناعة احتجوا بأن داود وسليمان ونوحاً كانوا من الصانعين، وكفى به منزلة وذكراً، وأما الذين قالوا بأنها الزراعة فقد قالوا هي مهنة آدم، وإن من فضلها ومنزلتها أنها حقيقة بالتوكل فالتاجر تتعلق آماله بأحكام التجارة وقوانين التصدير والتوريد، وأما الصانع فإنه يترقب قانون الجمارك والضرائب والتسويق، ولكن المزارع وحده هو من يضع البذرة في الأرض ويتوكل على الله، وبذلك فإن الزرع أطيب المكاسب لأنه أشبهها بالتوكل الصحيح على الله.
ولكن ما الذي أصاب المشهد الزراعي في سوريا، وكيف عطشت الأرض من بردى إلى العاصي إلى قويق الذي أصبح في النهاية أثراً بعد عين؟؟
ولكل نعمة شكر، وشكر الغيث يمنعك أن تبقى متفرجاً أمام افتراس الصحراء للمدينة ويقف بك موقف المذنب العاثر في التفريط بآيات كريمة يدعوك الإسلام إليها في إطار الإحسان إلى الإنسان والحياة، كقوله تعالى: وقولوا للناس حسناً ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين.
إن الطبيعة تمضي في رسم لوحة الخلود وفق البرنامج الإلهي للحياة، ولكن أين هو دور الإنسان في ذلك كله؟ لم يقبل الإسلام من المسلم أن يكون متفرجاً على ما ترسمه لوحة الطبيعة في الحياة بل يتعين أن يشارك في بنائها وغرسها وموقعها، وأصبحت رسالة المؤمن في زرع العرق الأخضر جزءاً من النسك الذي يتقرب به إلى الله.
أما السنة النبوية فقد جاءت حافلة بالوصايا الكثيرة في الإحسان إلى الحياة واحترام البيئة وتشجيع الزرع والرفق بالحيوان، وهي مقاصد يمكن التماسها في مئات الوصايا النبوية التي تزخر بها كتب السنة المشرفة قالρ: ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله له من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس، وفي رواية أخرى: ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة
بل إن النبي الكريم ρ دعا إلى جعل المقابر التي هي محل لذكر الموت حدائق تنعم بالعرق الأخضر وينزل الله فيها رحماته وإحسانه وبره، وتمنح المدينة الدفء والجمال والخصب إلى جانب كونها موعظة للموت وذكرى للمؤمنين، وكان يملأ المقابر بالآس وهو وعي بيئي لو مضى في غايته لكانت المقابر اليوم أجمل مرافق البلد وأكثرها تحفيزاً للحكمة والتأمل والفكر.
إنها ليست مجرد دعوة لاغتنام نعمة الزمن الذي لا يتوقف، والعمل فيه بحق الله وحق الناس، بل هو في جانب آخر دعوة للوعي البيئي الذي لا يجوز أن يغيب عن بال المؤمن وهو يملأ الأرض بالزرع والثمار والربيع.

الماء والربيع

قد لا تكون في الدنيا نعمة أعظم من نعمة الماء، فهو الحياة وهو الربيع وهو الخصب وهو العافية.
ولكن لكل نعمة شكر، فشكر المال الإنفاق، وشكر الجاه إغاثة الملهوف، وشكر القوة نصرة المظلوم، وشكر المعرفة التعليم، وشكر العافية الطبابة، وشكر الوطن الجهاد، وشكر الماء السقاية، وشكر الزاد الرفادة، وشكر الإيمان الدعوة، وشكر الحج الاستقامة، وشكر القدرة العفو، وشكر البأس الغوث، وشكر السلطان العدل، وشكر المولود العقيقة، وشكر النكاح الوليمة، وشكر الصلح الوتيرة، وشكر البصر العفاف، وشكر السمع الإغضاء، وشكر اللسان التسبيح، وشكر المطر الزرع، وشكر النجاة النذر، وشكر الدار الضيافة.
فما شكر الماء؟
وفق القرآن الكريم فإن حماية نعمة الماء والمحافظة عليها جزء من رسالة المسلم ومسؤوليته، وقد أطلق النبي الكريم مشروعاً رائداً للري في المدينة حين وصل إليها وشكل ما يشبه بوزارة خاصة للري، عهد بها إلى الصحابي الوزير طلحة بن عبيد الله، حيث حفر طلحة أربعة وخمسين بئراً في المدينة المنورة، وكان يقول الناس شركاء في ثلاثة الماء والكلأ والنار.
في القرآن الكريم سورة خاصة باسم سورة سبأ، وهي تحكي خبر قوم سبأ الذين كانوا يزرعون أرض اليمن ويخصبونها، وحين عدد القرآن نعم الله عليهم ذكر أول ما ذكر نعمة الماء، فقال لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل.
فقد أخبر القرآن الكريم أن السد والري وحماية الثروة المائية هي النعم التي استحقوا بها رضوان الله، وأن غضب الله إنما ظهر في تهدم السد وزوال نعمة الري والخصب والخير عن شعب اليمن.
ترى ما هو موقعنا من رضوان الله وسخطه، إذا راقبنا نهر بردى قبل خمسين عاماً وبردى اليوم؟ نتذكره يوم كان رياً وغياثاً وشكراً ورحمة، ونتذكره اليوم وقد أصبح عذاباً وأسى ومجارير.

حجة الحكومة دائماً أن الحي أولى من الميت، وأن بردى هو ري أهل دمشق، وكان بردى يجري ويصفق حين كان مكلفاً بري مائة ألف مواطن، ولكن حين نكلفه بري ستة ملايين مواطن، يثقبون الأرض بالآبار العشوائية التي تمتص مخزونه المائي في الأرض فسيجف ويضمر وينحسر.

الحقيقة أن الدولة مكلفة بأن توفر البدائل للري خاصة وأن الماء الذي يستهلك للشرب لا يزيد عن خمسة في المائة، في حين أن معظم الماء يستخدم للشطف والغسيل وسقاية الزرع، ولا يوجد أي سبب لانتزاعه من مقره وممره التاريخي الذي ظل يجري فيه ملايين السنين من نبع بردى إلى بحيرة العتيبة.

تاريخياً مرت بسوريا أهوال وحروب وغزاة وطامعون ولكن أحداً لم يتجرأ أن يجفف بردى لأي عذر فكيف سيقبل التاريخ أعذارنا في اغتيال بردى وتجفيفه؟

العرب .... من ثقافة النمل إلى ثقافة النحل
درس من ربيع الأرض

بداية لا بد من القول أن القرآن الكريم يذكر لنا أخبار الحيوان في صورة أمم ملهمة، وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون.
ومع أن كل الكائنات أمم أمثالكم ولكن القرآن تخير لنا منها الأمم الحيوانية المنظمة التي تصلح أن تكون قدوة في باب من أبواب التنمية والحكمة، ومن هذا الباب ذكر لنا أمة النحل وأمة النمل.
اختار الله سبحانه أن تكون ملكة النمل ومملكة النحل اسمين لسورتين كريمتين في القرآن الكريم، وهي سور طويلة ذات دلالة، في حين أن القرآن الكريم خص الفيل بسورة قصيرة من أربع آيات حيث ذكره مركباً للمجرمين المفسدين في الأرض، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، وفي تفاصيل القصة معلومات لخصها الشاعر العربي بقوله: لا بأس بالقوم من حجم ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

النمل مملكة النظام والانضباط، تحكمها عقلية شمولية في مجمتع شيوعي، وبالطبع فأنا أقصد النمط الاقتصادي ولا أقصد التفكير المادي الجدلي الإلحادي فنحن نعتقد أنه ليس في أمة النمل نملة ملحدة، وقد قال الله تعالى وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، ولكن النمط الاقتصادي الذي يحكم اقتصاد النمل هو نمط شيوعي تنظمه قاعدة: من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته.

مع أن سورة النمل فيها ذكر أنبياء وأصفياء وأولياء كثير، وفيها ذكر داود وسليمان وهود وصالح، ولكن الاسم المختار للسورة هو سورة النمل، ومع أن القرآن يشير إلى مملكة النمل باحترام ولكنها تعكس في الواقع حكاية المجتمع الاستهلاكي العاجز عن الإنتاج، ولكنه غير عاجز عن الاستيراد والتخزين، حيث تقدم صورة واضحة للمجتمع الاستهلاكي النشيط الذي يجمع في الصيف ليستهلك في الشتاء، وهكذا فعلى الرغم من الدأب والنشاط الذي يتحلى به مجتمع النمل إلا أنه يبقى نموذجاً للمجتمع الاستهلاكي، الذي يجهل أي معلومات عن القيمة المضافة أو عن تحرير الأسعار أو عن إعادة التصدير، وبالتالي فليس لديه في مملكته غرفة للصناعة ولا للتجارة، ولا فريق اقتصادي حكيم ولا هيئة أوراق ولا مكتب استثمار، وهو يكتفي بهيئة متميزة لإدارة المحاصيل وسجلات مضبوطة للمستودعات وخبرات ناجحة في التخزين وحماية المحاصيل.
يذكره القرآن أمام تقدم جيش سليمان، حتى إذا أتوا على واد النمل، فينسب الوادي إلى النمل لأن الأرض لمن يعمل بها، والحقل لمن يزرعه، وفي سطر واحد تدرك أن حكومة النمل حققت قدراً عالياً من التنظيم، ففيها قوات استطلاع وإشارة وفيها كفاءات إعلامية قادرة على التصرف بسرعة وحكمة، يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، وفي الآية بيان أن المساكن التي أسسها النمل كانت مناسبة لمواجهة كوارث الدهر وطوارق الليل والنهار، حين وقف خطيب النمل فيهم يستخدم أداة النداء المناسبة للجماهير قائلاً يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

النمل مجتمع تعاوني منظم، يتميز أفراده بالدأب والجدية في الحياة، وهم باقون على رغم سياسة الغاب التي تنص أن البقاء للأقوى، وبقاؤهم هنا سببه تحقق النظام فيما بين أفراد أمة النمل، وهذا سر احترامه في القرآن، ولذلك ذكر الله مجتمع النحل ومجتمع النمل ولم يذكر مجتمع الصراصير، هل رأيت صرصورين يتعاونان في شيء أو يكلم أحدهما الآخر، رب أسألك نفسي، ولأجل ذلك فإن الروايات لم تكف عن حكاية النملة والصرصار، وبالتالي حكاية الجد والكسل، وحكاية العبث والأمل، وخلال تاريخ طويل انقرضت فيه الديناصورات العملاقة والأستيوصور والأسموصور والكرونوصور والثيراناصور والبابسيصور وأشباهها من الكائنات العملاقة التي عاشت بين العصر الحجري والعصر الطباشيري، وعلى الرغم من حجمها العملاق وقوتها التدميرية فإنها هلكت في الواقع وبقي النمل، تمكن من تجاوز كوارث التاريخ وحافظ على نفسه وهو يسجل نمواً مطرداً على الرغم من كل ما أبدعته يد الإنسان وعقله من وسائل إبادة في النمل.

ولكن النمل على ذلك كله لم يتجاوز المستوى الاستهلاكي وظلت خبراته تقتصر على إدارة المستودعات، وفي أحسن الأحوال فقد تمكن من توفير الأمن الغذائي للشعب، وتمكن من حمايته نسبياً من الكوارث الطبيعية التي تضرب به في كل حال.

ومع أن النمل حظي بذكر في القرآن، ولكن النحل حظي باحترام آخر حين وصفه الله بتكريم خاص وقال وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومما يعرشون.
والوحي الإلهي وإن تأولناه هنا بالغريزة الطبيعية كما يشير جمهور المفسرين ولكنه على ذلك يتضمن معنى تكريمياً فريدً لا يصح إنكاره أو تجاوزه.

وأمة النحل تمتاز على أمة النمل بأنها أمة إنتاجية صناعية، وأنها قادرة على تحويل الرحيق إلى عسل، وأنها تتبع نظاماً دقيقاً صارماً في بناء حياة آمنة هادئة مطمئنة.
التراتبية والانضباط في مملكة النحل، وصحة القصد إلى العبير والزهر دون سواه جعل النحل مصدراً ثراً للإلهام والعافية والشفاء، وجعله أهلاً لتلقي الوحي الإلهي، وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون.
وفي النحل أشار القرآن إلى تعدد مصادر الإنتاج: ثم كلي من كل الثمرات، وخص الثمر دون الورق والشجر لأن المراد العنب وليس أن نقاتل الناطور، ثم قال: فاسلكي سبل ربك ذللاً، والمقصود هنا هو تذليل وسائل الإنتاج وتوفيرها لتأمين محصول جيد، وبعد ذلك أثنى على إنتاجها وروج له بين الناس ولا زال الوصف الإلهي إلى اليوم على رأس ما تقدمه شركات الإنتاج: يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ولاحظ كيف عبر عن مملكة النحل بالنحلة الواحدة فلم يقل من بطونهن ولكن قال من بطونها، وقال اتخذي ثم كلي، فاسلكي، وهو خطاب للواحدة فلم يقل اتخذن ثم كلن واسلكن، وذلك لنلاحظ أن النحل يتصرف كالنحلة الواحدة، فالنظام والعمل والجهد يجعل من مملكة النحل وهي ألوف مؤلفة بمنزلة النحلة الواحدة.

شخصياً لست مولعاً ببحوث الإعجاز، ولا رصيد لدي يدفعني لمزاحمة أساتذة الإعجاز، ولكن الرسالة هنا واضحة ويمكن قراءتها بلا أسرار، فالأمة الإسلامية اليوم تفتقر إلى ثقافة النحل، ولكنها على ذلك لم تبلغ ثقافة النمل بعد.
مملكة النمل مملكة عمل ودأب واستهلاك، أما مملكة النحل فهي مملكة عمل وإنتاج وإبداع.
لا مبالغة فيما يمكن أن يقال عن فوائد العسل الذي أصبح بكل جدارة جزءاً رئيساً من كل مائدة ويتم تقديمه بأنه سيد الطعام، وهو أيضاً جزء رئيس في تركيب الأدوية وغالباً ما يكون وحده

دواء شافياً لا يخالطه شيء، ولم تهتز صورته عبر التاريخ منذ استخدمه الفراعنة في ستين وصفة طبية إلى أن أصبح اليوم في أكثر من ستين ألف وصفة.

ولأنني لا أمتلك معرفة طبية كافية لفوائد العسل فسأبقى في الإطار الأدبي للعسل والنحل، فقد قالت العرب كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى، وقد أحصت العرب عشرات الأسماء للعسل منها العسل والسلوى والذواب والمأذى والحافظ الأمين والذوب والطرم والطريم والضرب والشوب والنسيل والشهد وجني النحل والآرى والنسلة والزبد وريق النحل ومحاج النحل، وقد جمع الفيروزابادي صاحب القاموس كتاباً خاصاً عن أسماء العسل أسماه ترقيق الأسل لتصفيق العسل، أورد فيه ثمانين اسماً للعسل وشرح دلالة كل اسم منها.

مع أنه ليس من شأن هذه السطور أن تتصرف كواعظ، ولكن ثقافة النمل ومملكة النحل تحمل خطاباً إرشادياً لقوم يتفكرون، ورحم الله الشاعر العربي:
تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل
نتصرف اليوم بعقلية النمل في الاستهلاك فمتى ننتقل إلى ثقافة النحل في الإنتاج.

تتصرف اليابان كدولة نحل، في حين أن طموح العرب لا يتجاوز ثقافة النمل، ولكن سلوكنا لم يبلغ ثقافة النمل بعد.

باع العرب نفطهم بسبع دولارات للبرميل الواحد قبل نحو عشر سنين واليوم يبيعون بمائة ودولارين، أي بنحو خمسة عشر ضعفاً، ومع ذلك فقد بلغ حجم المديونية العربية 160 مليار دولار فيما تصل أعباء خدمة هذه الديون إلى 12 مليار دولار سنويا وذلك وفق تقرير مجلس الوحدة الاقتصادية العربية لعام 2003 مع أن التقرير نص على أن العرب يملكون 62 بالمائة من الاحتياط النفطي العالمي،

وهكذا فإن مشهد الاستهلاك العربي لم يتغير وظلت قدرة العرب على تحقيق القيمة المضافة على السلع لا تتجاوز اثنين في المائة، بل إن تقرير منظمة النمو من أجل العولمة الصادر في مصر عام 1999 نص على أنه زادت القيمة المضافة للصناعات الغذائية فى الدول العربية بمعدل نمو سنوى قدره 0.7%. في حين أنها ارتفعت العام الماضي وحده في الصين بواقع 18.3 بالمائة، وسجل نمو الصناعة الثقيلة بواقع 19.6 في المائة، وزاد إنتاج الهواتف المحمولة بنسبة 35.3 في المائة، وإنتاج السيارات بنسبة 22.3 في المائة، وذلك كله خلال عام واحد.

أرقام من الاقتصاد العربي لها دلالة واحدة أننا لا نزال نعيش ثقافة النمل السوداني، فمتى ننتقل إلى ثقافة النحل الياباني.

الإيمان من أجل ربيع حضاري
سورة اليابان

كانت أول زيارة لي لليابان قبل سنوات، وفيها قدر لي أن أشاهد الحضارة اليابانية المذهلة التي فرضت احترامها على العالم، فهذه الأمة التي قامت بعد الحرب العالمية الثانية من بين ركام الأموات، وعلى رائحة القنابل الذرية الفاجرة التي ضربت ذلك الشعب الجريح، تخط سطوراً جديدة للمستقبل والحياة.
ليس لليابان ثأر تاريخي مع العرب، وطبيعة شعبها الودود تفرض عليك محبة هذا الشعب وإكرامه ومحبته، وهكذا فقد صعدت منبر الزهراء يوم الجمعة وقلت للناس: منذ عشرين سنة وأنا على هذا المنبر في كل أسبوع أفسر لكم سورة الرحمن وسورة الفرقان ولكنني اليوم سأفسر لكم سورة اليابان!!!
سورة اليابان كان استهلالاً صادماً محيراً دفع إلى ألف سؤال وسؤال!!
قلت للناس: لو افترضنا أن النبي الكريم قرر أن يزور أمته في الأرض للاطمئنان على صحتهم وأحوالهم، والكلام هنا محض افتراض مسبوق ب(لو) وهي كما تعلمون حرف امتناع لامتناع.
سنتصور أنه ركب مكوكاً فضائياً مناسباً وهبط به إلى الأرض، وعند طبقة الأتموسفير بدأ يتطلع إلى الأرض ليبحث عن المكان الذي يحط فيه ليجد أهله وأنصاره، وهم بالطبع أولئك الذين طبقوا تعاليمه وسنته، سيسأل أولاً عن أول كلمة جاء بها من السماء : اقرأ ، ولن يطول به الانتظار حتى يمتلأ تعجباً وغرابة حين يشاهد نسب الأمية المرتفعة في العالم الإسلامي، فأمة اقرأ لا تقرأ، والأمية ترتفع بين النساء في اليمن على سبيل المثال إلى معدل 70 بالمائة وتزداد في السودان والعراق لتصل إلى 75 بالمائة، وفي أفغانستان إلى 78 بالمائة وفي الصومال 85 بالمائة وفي النيجر 90 بالمائة، فيما دفنت اليابان آخر أمي عام 1961، والأمي اليوم هناك من لا يملك لغتين أو من لم يدخل عالم الحاسوب وهم هناك قلة على كل حال!!
حين يتساءل عن تعاليمه في الوحدة والجماعة، وإن هذه أمتكم أمة واحدة، سيهوله أن أمته الواحدة المأمورة بالوحدة والجماعة تتوزع بين ثلاثة وعشرين كياناً سياسياً عربياً ، ويتعاظم الخلاف إلى سبع وخمسين دولة إسلامية محصنة بما شاء الله من أشكال الحدود المنيعة المتينة، لكل منها علاقاتها وأحلافها وأصدقاؤها وأعداؤها ومشاريعها المنفصلة المتناقضة، ومؤتمراتها التي تنتهي إلى اتهامات وطوشات!! في حين لا يصدر عن المائة وثلاثين مليون ياباني إلا قرار سياسي واحد يقره برلمانه ويلتزمه شعبه!!
حين يسأل عن قوله: ما آمن بي ساعة من نهار من أمسى شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم، سيشاهد بعض أبناء أمته وهم يتقلبون في قصور الذهب والفضة الباذخة، وآخرون يعيشون في الخيام وبيوت الطين، وتسحقهم المجاعة الظالمة دون أدنى اهتمام بوصيته إن الله فرض في جيوب الأغنياء ما يسد جوعة فقرائهم، في حين أن اليابان قد أدركت ذلك حتى لم تعد تشاهد فيها متسولاً، وتمكنت من تحقيق نظم كافلة جلبت للفقير حظه وكفايته، وثقافة واعية تجعل المسرف منبوذاً كريهاً، وتحترم المال العاقل الذي يبني الحياة ويتشارك فيه الناس.
حين يسأل عن وصاياه الخالدة في أمر الطهارة والنظافة التي هي شطر الإيمان، وأن الصلاة نفسها لا تقبل إلا بطهارة الثوب والبدن والأرض فإن نظرة واحدة إلى شوارع كثير من العواصم الإسلامية وما يتراكم فيها من ربش ونفايات وقمامات وتعتير، ستجعله مقتنعاً بأن القوم لم يسمعوا بعد شيئاً من كلامه في الطهارة، فيما أصبحت شوارع اليابان بيضاء كأنها

أرض حرم طهور، ولا يمكن أن تجد فيها عقب سيكارة، وهم يخلعون نعالهم إذا دخلوا أماكن عامة إحساساً ببركة الطهارة والنظافة ورغبة في المحافظة على البساطة التي طبعت حياتهم!!
وإذا تساءل عن وصيته المشهورة إن الله يكره العبد البطال وقرأ معدلات البطالة التي ترتفع إلى أربعين وخمسين بالمائة في بعض مناطق العالم الإسلامي ناهيك عن البطالة المقنعة التي تفرزها المحسوبيات والواسطات في حين أن الأمة اليابانية اعتادت على معدلات بطالة لا تصل إلى ثلاثة بالمائة.
ولو سأل عن وصيته المشهورة لا تسرف ولو كنت على نهر جار، ثم تأمل القصور العربية التي صارت تبنى في حواشيها القرى والمزارع والملاعب وحدائق الحيوان، وراح بعضهم ينشئ مقاصير الزجاج الباذخة داخل البحر بتكاليف مذهلة، في حين أن 85% من الشعب الياباني الغني والثري لا يزال يفضل السكنى في الاستوديوهات، وهو مجرد غرفة نوم وصالون تسكنها العائلة في جو مفعم بالرضا ورغبة متجددة بالتنمية والبناء والازدهار، في حين أن أموالهم تنفق في المصانع والمعامل بدلاً من اكتنازها في نهم لا تنتهي!!
وإذا سأل عن وصيته الكريمة: بورك لأمتي في بكورها، ثم رأى يوم العمل الياباني يبدأ في الخامسة صباحاً، حيث تزدحم صالات المترو قبل طلوع الفجر بملايين الراكضين إلى أعمالهم كالنمل!! في حين أن اليوم العربي يبدأ في التاسعة وربما في العاشرة وأكثر من ذلك بكثير.
فإذا تذكر الآية الكريمة : وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه ورأى أن اليابانيين يركبون الفضاء ويخزنون الطاقة الشمسية ويوظفون الذرة للتنمية والبناء، في حين أن أمته لم تزل تستورد مواردها من أعدائها بدءاً من النفط العربي المطور حتى لقمة العيش، وهكذا....
هنا هل يكون ملاماً إذا حرك مكوكه صوب اليابان وحط في طوكيو بواقع أنهم أكثر منا تحقيقاً لوصاياه وتعاليمه ؟
أما لو أنه أراد أن يبحث عن أشكال الحياة التقليدية التي كانت سائدة في جزيرة العرب من الثوب والدشداشة واللحية والقلنسوة والبرقع والهريس والثريد فإن أنسب مطار يحط فيه هو مطار قندهار!!

وبعد.. فهذه محض تأملات في صناعة الربيع، قدمتها تعاليم الإسلام للحياة، ولا أشك أن لهذا الأمر تفاصيل لا تحيط بها هذه الدراسة، ولكنني أملك القول إن رسالة المسلم تقتضي أن يسعى في الإحسان إلى الأرض لتكون أكثر اخضراراً وأوفر زرعاً وضرعاً، بالمنجل والمسحاة، والسدود والآبار والري، ومع أن الآيات القرآنية الكثيرة نصت على هذه الحقيقة ولكن التأويل السائد يجعلها مسألة دعاء واستجابة، ولا يشير إلى مكان السعي والعمل والتدبير فيها، ولكن قراءة واعية للآية لا بد أن تحملك على الاعتقاد أن صناعة الربيع هي رسالة المؤمن، وأن نجاح الربيع أمارة رضوان الله، وأن تصحر الأرض أمارة غضبه وسخطه: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون.

دار ندوة العلماء
ص.ب 4344 هاتف 2771567
www.drkftaro.com